

في الأدب العربي

من الأدب التركي الحديث :

عبد الحق حامد

للدكتور عبد الوهاب عزام

شاعر الترك الأكبر، حمل لواء الشعر أكثر من خمسين عاماً غير منازع، ولا يزال على المرض والشيخوخة مطمح الأبصار، وقلة الأفكار .

ولد سنة ١٢٦٧ هـ فهو الآن في الخامسة والثمانين من عمره المبارك، وما قئ منذ بلغ العقد الثالث فياضاً بالشعر والنثر يسلك فيهما المسالك المختلفة موفياً على الغاية، بالغاً من الجمال والجلال النهاية، حتى كتب أكثر من ثلاثين كتاباً، ثروة يفخر بها الأدب التركي بل يتحلى بها الأدب الانساني.

وليس يتسع المقام هنا للإبانة عن شعره ونثره، أو الإفاضة في وصفه والكشف عن نواحي النبوغ والاعجاز في طبعه، ولكنني أعرض لكتاب واحد من كتبه :

في سنة ١٣٠٢ كان الشاعر في الهند فرضت زوجته، فسافر بها راجعاً الى دياره فماتت في الطريق ودفنها في بيروت . وكانت في سن الخامسة والعشرين، وشاعرنا يومئذ ابن خمس وثلاثين.

كانت وفاة فاطمة قيامة في نفس عبد الحق وفي الأدب التركي . كتب في البكاء عليها زهاء ألف وخمسمائة بيت في كتابين أكبرهما وأولهما سماه « مقبر »، وهو صرخة ماتزال مدوّية في الأدب التركي منذ خمسين عاماً . ولن يمحي صداها في الحياة ما بقي في الانسان قلب وما بقي للشعر التركي قارئ، والثاني سماه « أولو » أي الميت . يقول جناب شهاب الدين وهو من أعظم أدباء العصر :

ان « المقبر » ومقدمته فتحة عصر جديد في أدبنا المنظوم والمنثور . ولم تؤثر وفاة فاطمة في حياة الشاعر وحده بل في آداب الامة كلها . . . ولا ريب أنه قد ولد من القبر الذي في بيروت شاعر

جديد أعظم من شاعرنا الاول . ان « المقبر » أعظم وأجل مماثل في آدابنا، ولست ارتاب في أن هذه البديعة التي كتبت على حافة البقاء قد قدر لها الخلود .

« المقبر » ثورة هائلة بعث فيها الشاعر أناته وعبراته وصيحاته وكل مافي قلبه وعقله . ينظر الى القبر با كيا فيطير به الفكر في أرجاء العالم، و يصعد به الى الله ثم يطوى فكره شيئاً فشيئاً ويهبط به الى القبر ليطير عنه الى السموات كرة أخرى . وهو في ثورته واستسلامه يذكر القارئ بقصيدة فكتور هوجو (A. Villequier) التي رثى بها ابنته

ثارت نائرة بعض النقاد على حامد « ومقبره » حينما نشره اذ رأوا فيه لغة غير مألوفة، وثورة غير مفهومة، فكان في جلال الحزن وشدة الالم أسمى من أن يبالي المدح والذم . وما كتب الشاعر كتابه ليكون بديعة أدبية . بل أراد، كما يقول : أن يبني بالشعر قبر الحبيبة، لا يكثرث بالناس حين ينيه؛ ولا يبالي بما يقولون فيه .

وقبل أن أعرض على القارئ نموذجاً من « المقبر » أترجم مقدمته المشورة التي يراها بعض الادباء عهداً جديداً في النثر، كما يعدون الكتاب عصراً جديداً في الشعر . قال :

« المقبر » : — وهو آخر ما كتبت — كتب لتخليد وجود أصابه الفناء . وأنا أعلم أنه ليس في « المقبر » أثر من المعاني الشعرية التي تنطوي عليها المقابر . وإنما « المقبر » صيحة حسرة منبعثة من العدم، فلن يظفر قارئه بشيء، ولكنه عندى شيء . أجل أن الفكر حين يحوس خلال الكتاب ليطوّف في مقبره ثم يخرج منه كما يخرج من المقابر؛ لا يفقه شيئاً . . .

قراءة فاتحة هذا الكتاب كاستيعابه كله، والاحاطة بما فيه كالتفكير في اسمه . لقد كتب هذا الكتاب في مقبرة، فهو وحي من الالم لمن يعرفون الكاتب السيء الحظ، ووحى من الكلال لمن لا يعرفونه .

من يسألني : لماذا تنشر على الناس آلامك في هذه الصورة وكان يسعك أن تكتمها في قلبك، أو تكتبها ولا تنشرها ؟ فذلك جوابي له :

لا يبقى من هذه الاجساد المتهافة في وادى الصمت الا أحفان من التراب ، وكذلك لا يبقى في القلب من أحب الذكريات إلا خيال دارس ، ولست أقنع بهذا الخيال .

وأما نظم الكتاب وحفظه بين أوراق فصيره أن يبلى كما تبلى الاعضاء الميتة والافكار اليايسة ولست أرضى بهذا البلى .

هل يضمن نشر الكتاب خلودها كما رجوت ؟ لا — ولكن مهما يكن من شيء فاه «المقبر» أطول منى عمراً . ومن أجل ذلك نشرته ، انه قبر مبنى من الصيحات التى فى قلبى ؛ أود أن تكون كلماته كالكلمات التى نقشت على الاحجار . هيهات ... !

كل صيحة فى هذا «المقبر» قبر منفصل ولكن فيها كلها دفينا واحدا ، هو الانسانية التى تجلت لى فى الوجه الذى أحبيته . كتبت هذا الكتاب لأقرأه وحدى ، فقليل من يشاركنى احساسى . بل لا أود أن يشاركنى أحد فى هذا الاحساس خشية أن لا تكون هذه المشاركة الا بالتجريب . أريد أن أبكى وحدى على المسكينة التى بكيتها ، وهذه الوحدة عندى سلوان لانها أكبر العذاب . ألا يرى القارىء أن هذه المقدمة كذلك تشبه كتابا كتب لى وحدى . وبعد . فليست العبارات المكررة فى «المقبر» الا كلمة واحدة ، وليست هذه الكلمة الا قبرا ؛ كما تنتهى الاصوات كلها الى النفس الاخير .

لا ارتاب ان «المقبر» كأثرارى الأخرى سيفنى ، بل اعرف ان الابدية كلها لا تنفى بحفظ آلامى على حالها ، وسيصعد الكاتب الى حضرة الخالق ودماء هذا الجرح سيالة من قلبه من القلوب مالا يجتمع فيه السرور والآلام ، ومن القلوب مالا يزول حزنه بما يصيب فى الدنيا من سعادة وجد ، ولكن هذا الحزن لا يحول دون السرور ، وفى بعض القلوب يخيم السرور والحزن معا ، ومن أجل ذلك تلوح السلوة فى الحزن أحيانا ، ويبين الالم فى الابتسام .

ومن القلوب ما يزيد الفرح أحزانها . ومن هذه الآلام آلامى . أود أن أطرب ليزيد حزنى ، ولست بمستطيع أن أفهم الناس ذلك ، فلغة هذا الاحساس تكبر على الأفهام . فلاصمت !

إن القارىء الذى يريد أن يعد «المقبر» شعراً لأنه من آثارى لن يجد فيه من شاعرى أثرأ ، ولكنه اذا فكر يسمع صرخات يستطيع أن يحسبها شعراً ، وما هذه الصرخات الا عجز البشر .

أعظم الشعر وأجمله وأصدقه أن يعيا الانسان بالبيان فيصمت حين تنوبه إحدى الحقائق الهائلة . ولكن المقبر يخطف ولا يصمت . يعجز الانسان أحيانا أن يعرف خيالا لاخطر له لما يهره من

جماله ، ويقصر أحيانا عن أدراك الفكر الطائر عن عقله لما يفوته من علائه . ويعيا أحيانا بفهم الاحساس المولود من قلبه لما يهوله من عمقه . وفى هذا العجز يرسل صيحاته ، أو يشدو بمالا يفهم من كلماته ، أو يصمت فلا يترجم عن حسراته ، فيأخذ قلبه فيطؤه بقدمه فيحطمه . وهذا كله شعر .

«المقبر» يتضمن احساسا ولده قلبى . ولكنه فى بعض نواحيه غريب كل الغرابة عما يروى من شاعرى . يجد القارىء فيه لغتين لا تشبه أحدهما الأخرى ، حتى يحسب أن قد تعاقب على «المقبر» كاتبان . بل يبعد بعضه منى حتى أعيا أنا بفهمه .

فأما حديثى فيه عن الماضى - وهو أكثر مواضعه خرابا على أنه أحبها الى - فيبكى من يعدونى شاعرا ، ويزيد صدق من لا يعدونى من الشعراء . وبعض مواضعه ليس من شعرى ، بل هو أشبه بقبر فتاة فى ميعه الصبا .

أول هذين من النقاىص الأدبية ، والثانى من النقاىص الانسانية . وما يرجع الى تصوير الفضائل ناقص أى نقصان وبعض نواحيه لا يستطيع أن يمدت فى الأرض لأنه صيحات . «المقبر» فى جملة ، يراه كثير من الناس أثرا باردا ، ولكنها البرودة التى تحرق قلبى .

لا بد لعالم الأدب من آخره ، والمقبر من هذه الآخرة علامة ، «المقبر» قبر حياتنا الأدبية ، والمقبر زوالى (١)

«المقبر» بين عن فكر واحد بأساليب شتى ، الفاظه عندا الخاصة لاشئ ، ومعانيه عندا الخاصة والعامة لاشئ ، ولكن هيكله قبر ميت عزيز فهو عندى شئ .

«المقبر» خفيف فى جانب ثقل المصيبة التى أصابتى ، فأرغى فى جانب عمقها ، عدم فى جانب شعرها ، ولكنه بالقياس الى شئ . ينبغى أن يكون «المقبر» ضريحا لا قبرا ، معبدا لا ضريحا ، كوكبا لا معبدا ، فضاء لا ينتهى لا كوكبا . ولكنه وأأسفا ، لم يبلغ أن يكون قبرا .

«المقبر» ينبغى ان يكون منبرا ينزل اليه نور الالهى ، ولا يستطيع أن يصعد اليه الفكر الانسانى ، يجب ان يكون «المقبر» محشرا . هيهات . ! لأقول يجب الا أظهر فكرى ، بل ، يجب أن يكون بما لا يمكن ظهوره . «المقبر» يئن أبدا . وان دل هذا الأنين الأبدى على العمق فواحسرتا أنه لا يعدو أن يكون قبرا . ان معنى هذا «المقبر» ظواهر المقابر .

ذكرت النقاىص الأدبية والنقاىص الانسانية . نعم ، ماذا عسى

(١) يريد الشاعر أن الكتاب بغموضه وركاكنه قضى على الشعر التركى .

ويمينا بضة ناعمة خلقت للجد لا للعب
طبع النفس عليها شامة كالتى فى خدها الملتب
أن فى قرطاسها مرقها كائين العاشق المكتتب
وحنا بين يديها رأسه كأنحاء الساجد المقرب
غادة مرآتها أن نظرت صفحة من صفحات الكتب
يأله الشعر باركها إذا سبحت فى موجه المصطخب
احفظ الهيفاء من تياره ليس بحر الشعر سهل المركب
يا فتاة الخدر عودتك من سهر الليل ونجوى الشهب
وشروء الفكر فى جنح الدجى وهروب اللفظ عند الطلب
أتركى جفئك ينفث سحره فى خيالى وقفى عن كشب
لا تقولى الشعر بل أوحى به أنت خصب للخيال المجدب
أنما الشعر محيط فاسلى ودعى أمواجه تقذف فى
أنه عبء على حامله مال هذا العبء ألا منكبي
محمود غنيم

يا ليتنى !

عيني هل من صوب دمع مسعد؟ نفدت دموعى والأسى لم ينفد
روح فقدت حنانها البر الذى لا يستظل بمثله إن يفقد
مازلت فى حزن عليها مريض وتحير فى إثرها وتلد
جاءت وراحت أشهر لم تنصرف عن ودها روحى وقد صرفت يدي
وتجى أعوام وتذهب أشهر لا يرتوى من وجهها الطرف الصدى
يا ليتنى قد كنت حاضر يومها وسعدت قبل رحيلها بتزود
وشهدت أنها بلّين مهدها ورأيت سكنتها بجافى المرقد
لما نضت أو صاب داء مسقم من بعد طول تصبر وتجلد
ورمت قيود معيشة ما عاشها فى الناس غير مثقل ومقيد
لولا حذارى أن يفجعها الأسى ويؤودها صرف الحمام المعتدى
ويزيدها شجنا على أشجانها

لوددت لو عاشت وكنت أنا الردى
ونعمت فى لحدى بهاطل دمعها ينهل لى وبشوقها المتجدد
وحنانها الصافى يظل مزاوراً قبرى بروح مع الزمان ويعتدى
وأقر جسمى فى التراب موسداً ذاك القواد يعودنى فى العود
قد كان ذلك راحتي لا ما أرى من حيرة تضنى وعيش مكمد

فخرى ابوالسعود

أن أفعل؟ ماذا أفعل لتصحيح الخطأ واكبر الخطأ صادر من المصحح.
ان الآيات يجب أن تصنع للوقائع الجليلة، والافكار الجميلة،
كما تبنى الهياكل للأسماء الكبيرة، وبأسماء الوجوه الجميلة. والقبر
هيكل بناه الله فكيف نستطيع نحن أن نصور ونجسم؟
أى شاعر جسد امرأة جميلة فصورها للذين لم يروها؟ أى قلم حكى
الحاسن الطبيعية على وجهها؟ ان الذى يلهمنا احسن ما نشعر ونكتب هو
الطبيعة وهذا الشعر يشبه الصورة التى تترامى فى الماء لا بد لها من مصدر خارج.
بعض أكابر الأدباء يدعون أن مزايى الشاعر تولد من نفسه
وليس هذا رأى. ان محاسنى «ان كانت» هى للجمال والمروج والوجوه
الجميلة والأزهار. وأما سيئاتى فهى لى. أقول قبل أن أختتم:
ان المصيبة التى أخبرنى بها «المقبر» قلبت شعرى كما قلبت كل
شئ فى. فهل صعدت صدمة هذا الانقلاب بفكرى أو هبطت به؟
يعرف ذلك أخوانى.

انظروا كيف عجزت عن كتابة كلمات حتى فى المقدمة؟
الانقلاب الذى ذكرت هو قيامى فى نقطة أو فى فضاء غير
محدود حيث تصطدم السماء والقبر. بقى قلى طويلا بين هاتين القوتين
الهائلتين، كلما اقتربت شعرت بالعزاء وكلما ابتعدت غمرنى اليأس.
ثم أتحدنا فتحطمت فظهر «المقبر». فهل هذا شعر؟ محال.
كان يجب أن يتحد القبر والسماء أو بعبارة أصدق أن يبقيا مفترقين،
وكان يجب أن أنوح فى الافتراق والاستغراق فيكون هذا شعرا
أنا لا أستحسن معظم ما كتبت قبل «المقبر» وبعضه يعجبني
قليلا، وأما المقبر فلا يعجبني قط، ولكنى أحبه كل الحب. لا يعجبني
لأن صلة هذا الكتاب بالأدب واهية، وأحبه لأنه «هى»
لعل «المقبر» يشبه الشعر عند من يرون الخليفة كلها شعرا،
وهو عندى يذكرنى بشاعرة - شاعرة كانت شعر القدرة الصانعة
كل ما فى «المقبر» على نقصه وحشوه. روحانية متوفاة، ومعنوية روح
«المقبر» حالها وصورتها وخيالها وهيكلها وقبرها وحياتها
التي ذهب الدهر بمحاسنها. ثم أكرر فأقول: «المقبر» «هى»
ومن أجل ذلك أحبيته.

ولكن «المقبر» فى نظر الأدب طفل دميم: طاهر، ولكنه
ليس جميلا، وفيلسوف حقير: حكمة ولكنها ذات ريب، وحسن
معيب: صحيحة ولكن ذات صناعة، وقبر مشيد: ليس جزينا ولكنه
قبر: مغرب، ولكنه متلالى، جمال ولكن بغير حب، شعر
ولكنه ذوقافية، لأجل هذا لا أحبه

الفكر نهايته الموت، والشعر نهايته الألفاظ والقوافى، فإذا أضع؟
ان لم يكن «للمقبر» بد من فكر شرعى فهذا الكتاب قبر متوفاة،
أسأل زائريه الفاتحة.

وفى العدد الآتى نعرض على القارىء مثالا من شعر «المقبر»

ان شاء الله